أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم *

الحملة الفرنسية على مصر
حلقة فى التنافس التجـارى الدولـــى

نجحت البرتغال فى الوصول إلى رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٩٨م والدوران حول القارة الأفريقية بهدف اكتشاف عالم البهار، وبالتالى تحويل التجارة إلى الطريق الجديد، والقضاء على طريق التجارة القديم عبر البحر المتوسط ، وكان أن أدى هذا التحول إلى الدخول فى صراع مع دولة سلاطين المماليك فى مصر حتى انتهى الصراع بهزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية فى عام ١٥٠٩م، مما أدى إلى انهيار دولتهم لتحل محلها الدولة العثمانية التى تزعمت الدفاع عن ديار الإسلام ضد المخططات البرتغالية الحبشية لغزو الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وتدميرها .

وقد قام السلطان العثمانى سليم الأول ومن بعده ابنه سليمان بتحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلامية، ومنع السفن المسيحية من الدخول فيه حفاظا على المقدسات الإسلامية والعربية . ولما كان طريق التجارة القديم عبر مصر أقصر كثيرا من الطريق حول رأس الرجاء الصالح، فقد حاولت الدول الأوربية السعى لدى السلطان العثمانى لتسهيل مرور تجارتها إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، ونجحت فرنسا فى عام ١٥٣٥ فى الحصول على امتياز باحتكار التجارة فى المنطقة وحق حماية الرعايا الكاثوليك فى أراضى الدولة العثمانية(١).

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، جامعة القاهرة .

ولما كانت فرنسا إحدى دول البحر المتوسط فقد رأت تجنب المنافسة بين إنجلترا وهولندا، حيث أن كلا منهما كانت تسعى إلى السيطرة على طريق رأس الرجاء الصالح، لذا رأت فرنسا أن تولى كل اهتمامها نحو إحياء الطريق البرى عبر مصر والبحر المتوسط، وذلك حتى تتمكن من تحقيق منافسة تجارية مع الدول الأخرى، خاصة هولندا وإنجلترا .

وقد ساعد الموقع الجغرافى فرنسا فى السيطرة على الطريق البرى مثلما ساعد الموقع البحرى كلا من هولندا وإنجلترا ومكنهما من التحكم فى رأس الرجاء الصالح[٢].

ومنذ أواخر القرن السادس عشر أخذت فرنسا تحتل المكانة التقليدية لكل من البندقية ونابلى ، خاصة بعد تحالفها مع السلطان العثمانى ، وصارت الدولة الأوربية الأولى ذات النفوذ فى البلاط العثمانى ، وصاحبة حق رعاية الكاثوليك داخل الإمبراطورية العثمانية[٣].

وكان أن بدأ الصراع منذ ذلك القرن بين الدول الأوربية من أجل السيطرة وبسط النفوذ ومحاولات التوسع للحصول على امتيازات من حكام المنطقة ، وإحياء الطريق البرى الذى يوفر المسافة بين أوربا والشرق، وقد ازدادت أهمية هذا الطريق بعد الثورة الفرنسية التى أحدثت انقلابا فى العلاقات السياسية فى أوربا كما أنها كانت ضربة قاصمة وجهت للنظم الملكية السائدة. وكان على القوى الأوربية أن تقف أمام أفكار الثورة التى دكت عروش الملكية. وقد دفع هذا الصراع القوى الأوربية إلى السيطرة على طرق المواصلات عبر مصر والشرق لضمان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة، ولتأمين التجارة عبر هذه الطرق، ومن هنا جاء التفكير فى ضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند، وكان تاليران وزير الخارجية الفرنسى قد أدرك فوائد المستعمرات للدول الأوربية، وكانت الحكومة والرأى العام الفرنسى يميلان إلى القيام بعمل حربى حاسم، وغزو إنجلترا فى عقر دارها ، لكن نابليون أقنع حكومة الإدارة بخطورة ذلك، وأوضح أن غزو مصر لايقل أهمية وأثرا عن غزو إنجلترا ذاتها، واستجابت حكومة الإدارة لثقتها فى عبقريته العسكرية[٤].

من هنا كانت فكرة الحملة الفرنسية على مصر والتى أصبحت مجرد حلقة فى سلسلة الصراع الدولى للسيطرة على طرق المواصلات البرية ولاحتكار طريق التجارة عبر مصر، ومحاولة الحصول على امتيازات من حكام المنطقة للسيطرة على هذا الطريق البرى الهام.

وفى هذا السياق نحاول فى هذا البحث إلقاء الضوء على عدد من النقاط الأساسية والتى تتمثل فى:

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر .

ثانيا : الحملة البريطانية للسيطرة على الطريق البرى .

ثالثا : اشتداد الصراع بين الدولتين أثناء الحملة وبعدها .

رابعا : الآثار التى ترتبت على هذا الصراع حول طرق التجارة البرية .

أولا : المحاولات الفرنسية السابقة للحملة للسيطرة على طرق التجارة عبر مصر:

أدى تحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر إلى انزال الضرر البالغ بجمهورية البندقية ودولة المماليك فى مصر، يضاف إلى ذلك أن الصراع الحربى العنيف بين البندقية والدولة العثمانية الفتية التى ابتلعت شرق أوربا قد أجبر الأولى على الاعتراف بالأمر الواقع أى التفوق العثمانى فى هذا الجزء من البحر المتوسط (٥).

ومنذ القرن السادس عشر أقامت جالية فرنسية فى مصر، وكانت مصر إحدى ركائز الشرق التى أقامت بها الدول الأوربية وكالات تجارية، وحصلت الدول الأوربية على امتيازات تجارية تسمح للسفن الأوربية على حق تفريغ ركابها وبضائعها فيها(٦).

وكانت فرنسا أولى الدول التى حصلت على امتياز من السلطان العثمانى وذلك بمقتضى اتفاق عقد فى عام ١٥٣٥ بين ملك فرنسا فرانسوا الأول وسلطان القسطنطينية. وقد ضمنت هذه المعاهدة لرعايا فرنسا فى الدولة العثمانية حق الإقامة فى الثغور والمدن لأغراض التجارة كما ضمنت سلامة أرواحهم وممتلكاتهم، وحرية العبادة لهم، وأن يخضعوا فى معاملاتهم الشخصية لقضاء القنصل الفرنسى، وألا يدفعوا رسوما جمركية تزيد عن ٣٪ من قيمة المتاجرة ، كما لايتعرض عمال السلطان لتركات من يموت منهم (٧).

ولم يلبث أن حصل التجار الإنجليز على امتياز فى عام ١٥٨٠، كما حصل الهولنديون أيضا على امتياز فى عام ١٦١٢ مثل امتياز الفرنسيين. وهذا يوضح أن الدول الأوربية المتنافسة كانت تحاول الحصول على امتيازات من الباب العالى حتى لاتتعرض تجارة أى منهم إلى مضايقات من الدول الأخرى. ويعطى هذا التنافس أهمية كبرى للطرق التجارية عبر مصر، خاصة بعد أن أغلق السلطان العثمانى البحر الأحمر، وجعله بحيرة إسلامية. وكان الهدف من هذه الامتيازات تنشيط التجارة بين الدولة العثمانية والدول الأوربية دون أن تعطى للتجار الأجانب أى حق استعلاء على الرعايا المحليين .

وقد أثار فرانسوا الأول ملك فرنسا استنكار جزء من العالم الإسلامى لأنه أقام علاقات مع الدولة العثمانية رغم أن هذه المعاهدة ليست رسمية، لأن هذه الامتيازات إنما هى إنعامات يمنحها السلطان بصفة مؤقتة، ويجب أن تنال موافقة خلفائه . وفعلا وافق عليها السلطان سليمان القانونى فى عام ١٥٦٩ ، وباختصار فإنه منذ المعاهدة بين فرنسا والسلطان العثمانى حصلت الدول الأوربية على امتيازات مماثلة(٨).

والمعروف أن هذه الامتيازات أعطت الدول الأوربية حق البيع والشراء فى جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، كما تمتع التجار بإعفاء من غالبية أنواع الضرائب، مع حق ممارسة الشعائر الدينية بحرية(٩).

وكان النشاط التجارى الأوربى فى مصر فى فترة الحكم المملوكى العثمانى، خاصة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، يتجدد تباعا لمصالح الدول الأوربية خاصة انجلترا وفرنسا، وكانت هذه المصالح تتمثل فى التنافس على احتكار طريق السويس البرى، ورغم كشف طريق رأس الرجاء الصالح فإن التجارة لم تتحول عن الطريق البرى عبر برزخ السويس، وظل الإنجليز والفرنسيون يستخدمون هذا الطريق (١٠).

والواقع أن فرنسا أولت عناية خاصة بإحياء طريق السويس البرى منذ أواخر القرن السادس عشر خاصة عندما آلت المستعمرات البرتغالية- وأهمها جزر الهند الشرقية- إلى أسبانيا . وفى هذا الوقت فكر السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) فى توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط فى عام ١٥٨٦ حتى يستطيع الأسطول العثمانى الوصول إلى البحر الأحمر ، ومطاردة سفن البرتغال والأسبان فى مياه المحيط الهندى(١١).

لقد أصبح فتح الطريق البرى من قواعد الدبلوماسية الفرنسية فى القرن السابع عشر، ولاسيما فى عهد لويس الرابع عشر وخلفائه ، وسعت فرنسا لدى السلطان العثمانى حتى يوافق على فتح الطريق التجارى عبر مصر ، وعندما أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية فى عام ١٦٦٤ لم يكن الغرض احتكار جزء من تجارة انجلترا فحسب، بل كان الهدف احتكار نقل التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر المارة بطريق رأس الرجاء الصالح(١٢).

ورغم نشاط شركة الهند الشرقية فإنها لم تستطع أن تركز اهتمام فرنسا على إحياء الطريق البرى. وكان فقدان الممتلكات الهندية الفرنسية بعد ذلك بمائة عام قد بدد اهتمامات فرنسا بالطريق البرى، وتحول هذا إلى تنافس تجارى وعسكرى مع إنجلترا (١٣).

وسوف نحاول تتبع محاولات الفرنسيين لإحياء الطريق البرى، بل واحتلال مصر إذا لزم الأمر ، ويظهر هذا بشكل جلى من خلال كتب ومذكرات الرحالة والسياسيين والتجار، الذين كان لجهودهم الأثر الأكبر فى لفت أنظار الحكومات الفرنسية لأهمية هذا الطريق البرى. وجاءت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث لوضع هذه الأفكار موضع التنفيذ من خلال الحملة الفرنسية التى أصبحت إحدى حلقات التنافس الدولى على طرق المواصلات البرية، بل وفاتحة سياسة استعمارية أوربية ليس على مصر فحسب، بل على كل المنطقة العربية باعتبارها شريان الحياة فى طرق التجارة العالمية.

أولا : استمر اهتمام فرنسا بمصر عندما صدر كتاب فى عام ١٦٦٥ يحمل عنوان «رحلات مسيو دى تيفينو فى المشرق» والذى اشتمل على وصف مصر بدقة فضلا عن مدنها الرئيسية، والأثار الموجودة بها ، وتفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية، والاحتفالات الدينية فى مصر.

ثانيا : ظهر اهتمام فرنسا بمصر وآثارها وعظمتها عندما قام الفيلسوف الألمانى ليبنز فى عام ١٦٧٢ بزيارة إلى باريس ليسلم لويس الرابع عشر مذكرة يقترح فيها بوضوح إرسال جيش لغزو بلاد الفراعنة ويقول «هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة فى تنفيذه. إن مصر من بين جميع بقاع العالم هى الأفضل موقعا من أجل السيطرة على الدنيا وعلى التجار، والحال أنها خالية من أى دفاع، ولاتنتظر سوى وصول جيش تحرير لكى تنهض» (١٥).

إن هذه العبارات توضح مدى الاهتمام الذى أولته الدول الغربية لأهمية مصر، ومكانتها فى عالم التجارة وذلك فى القرن السابع عشر ، ويزداد هذا الاهتمام كلما دخلت أوربا فى صراعات وثورات اجتماعية وسياسية .

وكان ليبنز يعرف علاقات الدولة العثمانية السيئة مع فرنسا ، لكنه أكد أن مصر منذ قديم الزمن هى أرض العلوم ، وعرين المعجزات الطبيعية، ولذا يجب على المسيحيين عدم فقدان هذه الأرض المقدسة التى تربط أسيا بإفريقيا خاصة وأنها تتوسط البحرين الأبيض والأحمر ، وتعد مستودعا لغلال الشرق ، ومخزنا لكنوز أوربا والهند .

ثم عاد هذا الفيلسوف الألمانى ليؤكد مرة ثانية أنه بدلا من الهجوم على هولندا مباشرة، فإنه من الأفضل هزيمتها عن طريق مصر . ذلك لأن هذا المشروع سيؤمن امتلاك الهند وتجارة آسيا والسيطرة على الكون(١٦).

ولم يهتم لويس الرابع عشر بآراء ليبنز ولا حتى باستقباله أو الرد عليه، بل اكتفى بإخطار أمير المقاطعة الألمانية التى يعيش فيها بأن زمن الحروب الصليبية قد انتهى، ولم يعد يطابق ذوق العصر، وفضل الملك شن الحروب فى أوربا (١٧).

ثالثا : فى عهد لويس الخامس عشر تحسنت العلاقات بين فرنسا والدولة العثمانية، ولم يحدث أى تطور فى مشروع غزو مصر. وحاول لويس الخامس عشر فى عام ١٧١٤ تجديد معاهدة الامتيازات التى سبق أن وقعت فى عام ١٥٣٥ مع العثمانيين، والتى أعطت لفرنسا حق حماية المسيحيين فى سائر أرجاء الدولة العثمانية. لكن هذا أثار انجلترا التى ظلت تخشى ازدياد النفوذ الفرنسى فى الدولة العثمانية مما يهدد طريقها الملاحى عن طريق البحر الأحمر مثلما يهدد مصالحها فى الهند(١٨).

رابعا : ظل الحال على هذا المنوال حتى جاء لويس السادس عشر فتكررت النداءات والحجج لاحتلال مصر، فى الوقت الذى ازداد ضعف الدولة العثمانية بسبب حربها مع النمسا وروسيا(١٩).

وفى عام ١٧٧٦ قام البارون دى توت بإعداد مذكرة أكد فيها أن مصر مليئة بالثروات ويمكن غزوها بسهولة ، وإذا لم تستول عليها فرنسا فإن انجلترا سوف تفعل ذلك، وتحدث بسهولة عن فتح مصر واحتلالها فى مذكراته التى نشرها فى أربعة أجزاء فى عام ١٧٨٤(٢٠).

وتأثر وزير الحربية بهذه المذكرة ، وأرسل البارون دى توت إلى مصر، ثم عاد إلى باريس أكثر اقتناعا من أى وقت مضى بفكرة مشروعه . لكن انشغال فرنسا فى حروب مع انجلترا جعل من الصعب التخلى عن أى جزء من الجيش فى هذه الفترة، وتأجلت فكرة احتلال مصر لكن المشروع ظل ماثلا فى أذهان الساسة والمفكرين الفرنسيين .

خامسا : فى عام ١٧٨٧ ألف الرحالة فولنى قصة بعنوان «الرحلة فى مصر وسوريا» ووصف حالة مصر السيئة ، وحاول أن يصف العلاج لهذه الحالة بخروج المصريين من تحت السيادة العثمانية ودخولهم تحت لواء دولة أخرى تكون صديقة للمصريين وذات حضارة . ونهضة أدبية وعلمية وفنية، حتى تتمكن هذه الدولة من إحياء التراث المصرى القديم، والتنقيب عن الأثار المغمورة فى الدلتا والصعيد ، وكشف رموز اللغة والكتابة الهيروغليفية .

وهكذا رسم فولنى صورة عن بلاد يطحنها البؤس والأمراض والفوضى ، لكنه تحدث عن التجارة والمكوس والضرائب ، كما تحدث عن تحصينات ميناء الاسكندرية، وقدم وثيقة فريدة للفرنسيين الذين يحلمون بغزو مصر . وتأكيدا لهذه الرغبة من فولنى فقد ألف الرحالة سافارى أيضا كتابا نشره فى ١٧٨٥ وتحدث فيه عن خصوبة أرض مصر ووفرة غلاتها وسهولة غزوها والاستيلاء عليها (٢٢).

وفى هذا الكتاب الذى حمل اسم «خطابات عن مصر» دعا إلى غزو مصر لأنها ستكون مركز التجارة فى العالم، والجسر الذى يربط أوربا وآسيا(٢٣).

وعلى العموم فإن كتابات هؤلاء الرحالة كانت مقدمة جوهرية لغزو مصر، حيث بلغ الضيق بهؤلاء التجار الفرنسيين حدا جعلهم يطالبون بإرسال قوات عسكرية لتأديب المماليك ولتأمين مصالحهم (٢٤).

لقد جمع فولنى كل الآراء التى تدعو فرنسا لاحتلال مصر ولخصها فى عدة نقاط :

أ- أن مصر تنتج المحاصيل التى تحتاجها فرنسا كالشعير والأرز والقطن والعنب وقصب السكر وغير ذلك .

ب- أن احتلال مصر سوف يمكن فرنسا من الحصول على السلع القادمة من أفريقيا كالعاج والتبر والرقيق .

ورغم هذه المزايا فقد أشار فولنى إلى أن احتلال مصر سوف يجعل فرنسا تدخل فى حروب مع الأتراك والإنجليز والمصريين . ولن تنجح فرنسا فى احتلال مصر نظرا لاختلاف الدين والعادات والتقاليد. وطالب فرنسا بأن تركز على تحسين الإنتاج داخل بلادها وتبتعد عن الاستعمار فى هذه الفترة.

سادسا : عندما استولى على بك الكبير على السلطة فى مصر عام ١٧٦٨ قام بالقبض على التجار الفرنسيين ، وانسحبت القنصلية الفرنسية من القاهرة إلى الاسكندرية ومعها غالبية التجار، وقرر بعضهم البقاء فى مصر على مسؤولياتهم . ومن هؤلاء التاجر تشارل ماجالون الذى كان يقوم بعمل القنصل. وقد لعبت هذه الشخصية دورا حاسما فيما بعد خاصة بعد قيام الثورة الفرنسية ، وإضعاف الجالية الفرنسية، وقيام المماليك بابتزازهم، وكان الفرنسيون يشترون الأسلحة ويتدربون على استخدامها ساعتين يوميا(٢٥).

ونجح ماجالون فى عقد ثلاث معاهدات مع مصر فى يناير ١٧٨٥، الأولى مع مراد بك الذى تعهد بحماية التجارة الفرنسية عند مرورها فى مصر، وحدد الضريبة على متاجر الهند بمقدار ٢٪ للوالى على مصر و٤٪ للبيك الحاكم و٣٪ إذا كانت التجارة مصدرة إلى فرنسا. أما المعاهدة الثانية فقد وقعها مع يوسف كساب ملتزم الجمارك العام وفيها تعهد يوسف بعدم زيادة الرسوم على المتاجر الفرنسية وتحصيل ٥٪ من قيمة المتاجر المفرغة فى السويس، وكانت المعاهدة الثالثة مع الحاج ناصر شديد أحد شيوخ الأعراب (العربان) وفيها تعهد بنقل المتاجر الفرنسية بأمان فى طريق الصحراء بين السويس والقاهرة مقابل مبلغ معين عن كل جمل(٢٦).

لكن هذه المعاهدات لم تكن ذات قيمة تذكر لأنها لم تحدث أى تغير فى موقف فرنسا تجاه مصر، ولم يتحسن هذا المركز التجارى. وهذا ما جعل الجالية الفرنسية تتخذ خطوة أكثر إيجابية تجاه مصر والطريق البرى.

سابعا : وفى عام ١٧٩٠ أرسلت الجالية الفرنسية التماسا إلى الجمعية التأسيسية والغرفة التجارية بمرسيليا، تطلب فيه فرض حصار بحرى على مصر، مما يتيح لفرنسا الاستيلاء على الطريق إلى الهند. وهكذا تحول التجار إلى خبراء فى الخطط الحربية الاستراتيجية، كما قاموا بتحديد عدد القطع البحرية اللازمة لتنفيذ هذا العمل، لكن لم يصل أى رد لأعضاء هذه الجالية(٢٧).

وفى عام ١٧٩٣ تقدم أعضاء الجالية الفرنسية بالتماس آخر، ولم يكن المطلوب هذه المرة مجرد حصار بحرى بل الاحتلال الصريح الواضح. لكن الحكومة الفرنسية لم ترد على هذا الالتماس أيضا، ونشط ماجالون وكتب إلى سفير فرنسا فى القسطنطينية يقول «أرجوك أيها المواطن ألا تتقاعس عن المعاونة فى اعطاء مصر لفرنسا، فهذه هى أجمل الهدايا التى يمكنك منحها لها، وسيجد الشعب الفرنسى فى هذا الكسب موارد هائلة»(٢٨).

وأوضح مجالون أهمية الطريق التجارى عبر مصر، وقال أنه إذا أصبح الفرنسيون سادة البحر الأحمر فإنهم يستطيعون أن يهددوا مصالح البريطانيين، وأن يطردوهم من الهند. وهكذا خرجت نوايا فرنسا تجاه مصر من حيز التفكير إلى حيز التصريح(٢٩).

ثامنا : لقد وجد ماجالون من يستمع إليه أخيرا، وذلك عندما أصبح تاليران وزيرا للعلاقات الخارجية، وطلبت منه الحكومة كتابة مذكرة توضيحية عن أوضاع الطريق التجارى

عبر مصر. وقام تاليران بإعداد المذكرة التى اقتبس فيها الكثير من آراء ماجالون، وقدمها إلى حكومة الإدارة فى ١٤ فبراير ١٧٩٨ . وكان هذا التقرير دعوة إلى احتلال مصر ، وأشار تاليران فى تقريره إلى أن مصر بلاد غنية ، كما أن موقعها الجغرافى يجعل منهما المركز التجارى الطبيعى للعالم، فإذا ما قامت فرنسا بتحقيق الاستقرار والأمن بها تتمكن الملاحة المتجهة إلى الهند من التخلى عن طريق رأس الرجاء الصالح (٣٠).

وأوضح تاليران أن فرنسا سوف تفقد إن آجلا أو عاجلا مستعمراتها فى أمريكا، وأنه لايوجد تعويض أفضل من مصر. أنها بلاد يسهل أخذها ، ولن تدخل الإمبراطورية العثمانية فى حرب للدفاع عنها لأنها سوف تنهار بعدة مدة لاتزيد عن خمسة عشر عاما. وبالتالى فإن على الجمهورية الفرنسية أن تأخذ منها ما بناسبها . وهو يقصد بذلك أن تكون مصر فى أولى الأوليات من هذه الأنقاض. وأقر هذا الغزو هنرى لويس الذى أكد أن الغزو واجب تحتمه الثورة الفرنسية، نصيرة حقوق الإنسان، والتى تسعى إلى نقل الحضارة إلى منابعها الأولى فى مصر(٣١).

تاسعا : تحمس كل من تاليران ومعه الجنرال نابليون لمشروع غزو مصر، ولم يلبث أن صار هذا المشروع حديث رجال الإدارة والسياسة والصحافة ، كما حاز على تأييد الأوساط الشعبية الفرنسية ، ومن ثم دخل المشروع فى دور التنفيذ .

وفى ١٢ أبريل ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة قرارا بتشكيل جيش الشرق -تحت قيادة نابليون بونابرت - لغزو مصر ، وأوضحت حكومة الإدارة الأسباب التى دفعتها إلى إرسال حملة على مصر لمعاقبة بكوات المماليك أصحاب السلطة فى مصر، كما أشارت إلى الاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح والذى يعرقل وصول الفرنسيين إلى الهند(٣٢).

وهكذا اتضحت سياسة فرنسا من خلال الرحالة والمفكرين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، التى كانت تهدف إلى تحويل تجارة فرنسا الشرقية إلى الطريق البرى عبر مصر، وذلك لمنافسة التجارة التى تمر فى طريق رأس الرجاء الصالح. وقد اتضح أيضا أن الحكومة الفرنسية لم تفكر أساسا فى تشجيع التجارة مثلما فكرت فى القضاء على نفوذ كل من هولندا وإنجلترا (٣٣).

وباختصار فإن فكرة الحملة الفرنسية على مصر، وفكرة السيطرة على طريق التجارة عبر مصر، قد وجدت تأييداً ودعما من كل المفكرين عبر سنوات طويلة. وكلما اشتد الصراع بين

فرنسا والدول الأخرى كلما ازداد الاهتمام بالفكرة، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث هى التى أحيت الفكرة وإعادتها إلى الأذهان . وكانت محاولات انجلترا للسيطرة على هذا الطريق هى التى حفزت على القيام بالحملة[٣٤].

ثانيا : المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى:

من المعروف أن التجار البريطانيين وصلوا إلى مصر متأخرين عن التجار الفرنسيين، وذلك لأن بريطانيا لم تدخل ميدان البحر المتوسط إلا فى فترة متأخرة ولأن التجار لم يكن لهم اهتمام بالتجارة الأوربية قبل القرن السادس عشر . ولكن حدث بعد اتحاد انجلترا سياسيا إثر حرب الوردتين (١٤٥٥-١٤٨٥) أن أخذت تتطلع إلى الطرق البحرية لزيادة مواردها.

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأت السفن الإنجليزية تتاجر على الساحل الأوربى بل وفى مدخل البحر المتوسط، مما تسبب فى إزعاج السفن الأسبانية والفرنسية. لكن بريطانيا أنشأت شركة الهند الشرقية الإنجليزية فى ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ لاحتكار التجارة الشرقية.

وسوف نحاول فيما يلى إلقاء الأضواء على المحاولات البريطانية للسيطرة على الطريق البرى والدخول فى منافسة مع الدول الأخرى.

أولا : فى النصف الثانى من القرن السادس عشر تكونت شركة الليفانت، وأدى قيامها إلى بداية علاقات دبلوماسية تجارية مع الدولة العثمانية. وقد حاولت الحكومة الفرنسية عرقلة نشاط هذه الشركة الإنجليزية، ونجحت فى ذلك إلى حد ما ، لكن السلطان العثمانى اعترف فى عام ١٥٨٣ بالسيد وليم هاربون سفيرا لبريطانية فى الأستانة ، وتعد هذه الخطوة بداية مرحلة جديدة من العلاقات البريطانية مع الشرق الأدنى [٣٥]، وهو الأمر الذى ظهر فى الاهتمام البريطانى بتعيين قنصل لها فى مصر عام ١٥٨٣، كما أرسلت إنجلترا سفينة محملة بالقصدير والرصاص إلى الاسكندرية.

ثانيا : فى عام ١٥٨٧ ظهرت طلائع السفن البريطانية فى الاسكندرية، وبدأ التجار الإنجليز يمارسون نشاطهم فى مصر رغم فرض رسوم وصلت إلى ١٠ ٪ على تجارتهم ، وهى بالطبع نسبة أعلى من النسبة التى تدفعها فرنسا، على أن الأصواف الإنجليزية لم تجد الرواج المطلوب فى مصر، فى حين أخذ التجار الفرنسيون ينظرون بعين الشك والريبة إلى التجار الإنجليز ، وأخذوا يختلقون لهم الدسائس والمكائد عند السلطات المصرية، وهكذا اضطر التجار

الإنجليز إلى مغادرة مصر، كما أغفلت شركة الليفانت القنصلية الإنجليزية فى عام ١٦٠١ ، وعهدت برعاية مصالحها إلى القنصل الفرنسى.

ثالثا : فى عام ١٦٩٧ عادت شركة الليفانت تمارس نشاطها من جديد، وعينت ميلز فليتود قنصلا للإشراف على مصالحها فى مصر، ولكنه وجد معارضة من القنصل الفرنسى هناك، وأيضا من القنصل الفرنسى فى الأستانة، رغم صدور قرار من السلطان فى عام ١٦٩٨ بالاعتراف رسميا بالقنصل الإنجليزى فى القاهرة، وإن دل هذا على شىء فإنه يدل على العداء الدفين الذى كان يكنه القنصل الفرنسى سواء فى مصر أو الأستانة لأى نشاط قنصلى انجليزى، حتى لاتجد فرنسا من ينافسها على طرق المواصلات التى وضعتها فى حساباتها منذ القرن السادس عشر . ويفسر هذا الموقف بدايات الصراع والتنافس على الطرق البرية عبر مصر والبحر الأحمر.

رابعا : عندما قامت حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١-١٧١٤) حاولت انجلترا الاستفادة من هذه الحرب بتدعيم نشاطها التجارى، لكن لم يؤثر ذلك على ما حققته فرنسا من مكاسب تجارية وظلت التجارة الإنجليزية ضئيلة وأخذت تتناقص تدريجيا حتى أنه فى عام ١٧٥٦ لم يكن فى مصر سوى تاجر إنجليزى واحد.

خامسا : عندما قامت حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) تركت أثارها على التجارة الإنجليزية التى أخذت فى الاضمحلال. ولكن حدث بعد توقيع معاهدة باريس ١٧٦٣ أن تغير الموقف وأصبحت هذه نقطة تحول فى نظر انجلترا إلى الطريق البرى عبر مصر، لأن هذه المعاهدة أطلقت يد انجلترا فى الهند، حيث اقتصر اهتمام الحكومة البريطانية على أصلح الطرق وأقصرها لنقل الرسائل والتعليمات والجنود بين الهند وانجلترا وكانت الرسائل تصل فى خلال ثلاث وستين يوما أى حوالى ربع المدة للرحلة عن طريق رأس الرجاء الصالح[٣٦].

سادسا : وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر تجدد اهتمام الإنجليز بمصر وبطريق السويس البرى، وكان السبب فى ذلك يعود إلى :-

أ- زيادة أهمية موقع مصر الجغرافى أثناء حرب السنوات السبع باعتبارها حلقة هامة فى طريق المواصلات بين بريطانيا والهند، خاصة عند نقل البريد.

ب- استقلال على بك الكبير بمصر عام ١٧٦٩ واشتعال الحرب الروسية التركية

(١٧٦٨-١٧٧٤) مما أضعف الدولة العثمانية ، وخشية بريطانيا من وقوع مصر تحت سيطرة دولة قوية مما يؤثر على مصالحها فى الهند .

ج- رغبة بعض التجار الإنجليز فتح طريق مباشر بين الهند والسويس، وتشجيع على بك لفتح هذا الطريق ، وإرسال خطاب إلى وارن هسيتنج حاكم البنغال فى مارس ١٧٧٥ لعقد اتفاقية للتجارة والملاحة مع حكام المماليك ، خاصة مع محمد أبى الدهب، وتأكيد اتفاقية جيمس بروس عام ١٧٧٣ [٣٧].

سابعا : لم تكن انجلترا تهتم بالناحية التجارية فحسب، وإنما كان هدفها الوصول إلى المستعمرات . وكان التجار الإنجليز مجرد مغامرين . وقد ظهرت مجموعة من الرحالة والتجار الذين حاولوا تحقيق مكاسب تجارية لإنجلترا ، ومن هؤلاء الرحالة البريطانى جيمس بروس الذى كان يعمل فى قنصلية انجلترا فى الجزائر، وحضر إلى القاهرة فى يونيه ١٧٦٨ ولم يجد بها أحدا. وقابل على بك وعقد معه معاهدة ١٧٧٣ أعطت للسفن البريطانية حق الدخول شمالا حتى مرفأ السويس . وبذلك أصبح العلم البريطانى أو الأعلام الأجنبية التى رفرفت فى البحر الأحمر بعد أن كان بحيرة إسلامية مغلقة فى وجه السفن الأجنبية [٣٨].

وبعد رحيل على بك نجح بروس فى عقد اتفاق مع محمد أبى الدهب فى فبراير ١٧٧٥، وفى هذا الاتفاق أمكن السماح للسفن الإنجليزية بالقدوم إلى السويس ، وعدم التعرض للتجار الإنجليز بالأذى. هذا فضلا عن تحديد الرسوم الجمركية بحيث لاتزيد عن ٨٪ على التجارة الواردة إلى السويس، مع فرض خمسين ريالا أسبانيا كرسم ميناء لكل سفينة[٣٩].

ثامنا : لما ازداد نشاط التجار الإنجليز فى السويس، تقدم السلطانى العثمانى فى عام ١٧٧٥ بطلب إلى حكومة لندن يطلب فيه منع السفن الإنجليزية من الوصول إلى السويس أو القيام بأى نشاط تجارى هناك. ووافقت حكومة لندن على هذا الطلب بشرط أن تطبق نفس الشروط على سفن الدول الأخرى. ولكن رغم صدور قرارات الحكومة البريطانية فقد ظلت السفن الإنجليزية تصل إلى السويس حتى اضطرت الحكومة البريطانية إلى وقف الاتجار فيما وراء جدة. وهكذا أدت المعارضة العثمانية للسفن الإنجليزية إلى فشل المعاهدات مع المماليك[٤٠].

تاسعا : لقد كان هذا النشاط الإنجليزى فى مصر سببا فى إثارة فرنسا خاصة عند قيام جورج بولدوين بتنظيم خط منتظم من المواصلات بين الهند وبريطانيا ، وبدأت السلطات الإنجليزية فى الهند فى الاعتماد على طريق البحر الأحمر ومصر[٤١].

وأمام قسوة الحكام المماليك عاد النشاط الإنجليزى لمصر بعد عام ١٧٨٥ . لكنه لم يعد تجاريا بحتا ، بل أصبح يحمل الطابع السياسى. ودخلت الحكومة البريطانية نفسها فى هذا المجال. وقد أصبحت مصر حلقة من حلقات الصراع العنيف بين فرنسا وانجلترا حول الهند، فضلا عن أن مصر خرجت من سياستها الجامدة فى علاقاتها مع الدول الأجنبية. وتخلت عن سباتها العميق، وأصبحت تتأثر بالأحداث الأوربية الدولية. ولهذا استدعت التاجر البريطانى جورج بولدوين وطلبت منه أن يكتب تقريرا عن النشاط الفرنسى فى مصر(٤٢).

عاشرا : قدم بولدوين تقريره فى عام ١٧٨٥ ونشر هذا التقرير فى كتاب بعد ذلك تحت اسم «مذكرات سياسية بخصوص مصر» ، وفى هذا التقرير وجه الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى وحاصلاتها التجارية وأهميتها بالنسبة لفرنسا ، وما يمكن أن يؤدى إليه احتلال الفرنسيين لها. وقد أدى هذا التقرير إلى ضرورة مواجهة إنجلترا للنشاط الفرنسى فى مصر، وعقدت فعلا معاهدات مع شركة الهند الشرقية وقررت إنجلترا وضع خطة تقوم على أساس إرسال جورج بولدوين إلى مصر ليكون قنصلا لها، وتكون مهمته التفاوض مع المماليك لعقد معاهدة تجارية، وإرسال تقارير عن النشاط الفرنسى فى مصر(٤٣).

وفى عام ١٧٦٨ وصل بولدوين إلى مصر وتقلد مهام منصبه. وحاول عقد معاهدة مع القبطان باشا الذى جاء للقضاء على مراد بك، لكن فشلت المفاوضات لأن القبطان باشا عاد إلى بلاده بسبب الحرب الروسية التركية. وعاد مراد بك بجيوشه ودخل القاهرة ووقع معاهدة مع بولدوين فى عام ١٧٩٤ . وقام بولدوين بإرسال هذه المعاهدة إلى حكومة لندن ، لكن الحكومة قابلتها بنوع من الفتور وعدم الهتمام وذلك بسبب خوف بريطانيا من تحول التجارة الفرنسية إلى البحر الأحمر ومصر بعد حرب السنوات السبع، فضلا عن انشغال بريطانيا وفرنسا فى حروب بعد عام ١٧٩٣ وحاجتهما إلى جهود عسكرية لمراقبة مصالحهما فى الأستانة، وعلى الطريق البحرى حول القارة الأفريقية ، يضاف إلى ذلك تلك الفوضى السائدة فى مصر فى ظل حكم كل من ابراهيم بك ومراد بك ، وهو الأمر الذى انعكس بشكل واضح على الطرق التجارية(٤٤).

والجدير بالذكر أن وزير الخارجية البريطانية أمر بإغلاق القنصلية البريطانية فى فبراير ١٧٩٣ لأنها تتطلب نفقات تفوق وجودها فى مصر ، كما أقيل بولدوين ، الذى استمر رغم

ذلك فى مصر ولم يغادرها إلا فى أبريل ١٧٩٦، أى قبل وصول الحملة الفرنسية بشهور قليلة[٤٥].

واستمر بولدوين يحذر بريطانيا من مخططات فرنسا فى مصر ، لكن دون جدوى، وعاد إلى مصر فى عام ١٨٠١ ليكون ضمن الحملة التى جاءت لإخراج الفرنسيين منها[٤٦].

وهكذا تخلت إنجلترا عن فكرة تقوية نفوذها فى مصر ، ولم تستمع إلى نداء رجال التجارة والقناصل ، حتى فاجأتها فرنسا بتلك الحملة على مصر ، وهى التى تمثل دورا جديدا من أدوار السباق بين انجلترا وفرنسا حول الفتح والاستعمار منذ القرن السابع عشر ، وخلال القرن الثامن عشر، والذى اتخذ طورا جديدا بعد الثورة الفرنسية التى قضت على النظام القديم وأعلنت الجمهورية ، وكان أن تألبت الدول الأوربية عليها، ودخلت مع إنجلترا فى حرب سجال بعد أن صارت إنجلترا العقبة الكئود بسبب موقعها الجغرافى. ومن ثم فكرت حكومة الإدارة الفرنسية فى ميدان آخر يمكن أن تقهر فيه انجلترا . وكان أفضل ميدان هو ضربها فى مستعمراتها فى الهند بالاستيلاء على مصر، فكانت الحملة الفرنسية التى تعد فصلا جديدا من فصول الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية[٤٧].

وفى أبريل ١٧٩٨ قررت حكومة الإدارة غزو مصر، وصدرت التعليمات إلى نابليون بتجهيز الحملة وقيادتها . وتضمن البيان سوء معاملة التجار الفرنسيين ، كما تعرض للاحتلال البريطانى لرأس الرجاء الصالح، وعرقلة وصول الفرنسيين إلى الهند ، وطلبت حكومة الإدارة ضرورة فتح طريق آخر إلى الهند.

وتتلخص المهام التى كلف بها القائد العام لجيش الشرق، فى الاستيلاء على مالطة ومصر وطرد الإنجليز من مؤسساتهم فى الشرق[٤٨].

هذه هى الدوافع الحقيقية للحملة الفرنسية التى لم تكن سوى مرحلة من مراحل الصراع الدولى على طرق المواصلات، والحصول على امتيازات تجارية وصناعية، أى أن الحملة الفرنسية تدخل فى إطار الصراع الإنجليزى الفرنسى، ورغبة فرنسا فى السيطرة على طرق التجارة للهند. ومن الواضح أن الحملة الفرنسية على مصر تعد نقطة تحول خطيرة فى حياة مصر والشرق العربى كله، حيث أظهرت بشكل قاطع الأهمية الاستراتيجية لهذه البلاد المطلة على البحر المتوسط والواقعة على الطريق الهام المؤدى إلى الهند[٤٩].

ثالثا : الحملة واشتداد الصراع بين الدولتين :

خرجت الحملة الفرنسية من ميناء طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨ ، فوصلت إلى جزيرة مالطة، وقامت باحتلالها ، فى حين كان الأسطول الإنجليزى يراقبها فى البحر المتوسط ، ويرغب فى تحطيمها . وبينما الحملة الفرنسية مشغولة فى مالطة ، وصل الأسطول الإنجليزى إلى الاسكندرية ليبدأ مرحلة من الصراع حول طرق المواصلات بين الشرق والغرب. ويتمثل هذا الصراع فى النقاط الآتية :

أولا : بعد أن وصل الأسطول الإنجليزى إلى سواحل مصر لم يجد الأسطول الفرنسى، فأقلع الإنجليز للبحث عن الأسطول الفرنسى، وعندما وصل نابليون إلى الاسكندرية اختار منطقة العجمى ، لإنزال الجنود والعتاد والمهمات ليلا، ولكن عندما علم الأميرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزى بقدوم الفرنسيين إلى مصر، عاد إلى سواحلها . وفى أول أغسطس ١٧٩٨ وقعت موقعة أبى قير البحرية وفتحت النيران من الجانبين، وقتل أمير البحر الفرنسى وانفجرت بارجته ، وهكذا قضى على الأسطول الفرنسى بأكمله فيما عدا أربع بوارج اضطرت إلى الانسحاب بسرعة جنوب مالطة. وغنم الإنجليز ست سفن فرنسية. وكانت هذه العملية ضربة قوية أصابت الحملة الفرنسية على مصر، وقضت على وسائل اتصال الحملة بفرنسا ، وأدى هذا إلى انخفاض الروح المعنوية عند الفرنسيين، وخضوع مصر لعملية الحصار البحرى وما كان لهذا من أثر على طرق التجارة العالمية (٥٠).

وفى نفس الوقت رأت حكومة بومباى بعد وصول الحملة إلى مصر ضرورة القيام بنشاط واسع النطاق للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر، لمنع أى محاولة فرنسية للوصول إلى الهند من جهة ولحماية جهودها الرامية إلى تنشيط التجارة المتبادلة مع سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية على وجه الخصوص . ولهذا تحركت قوة من الهند بقيادة الكولونيل جون مورای واتجهت نحو المدخل الجنوبى للبحر الأحمر واحتلت جزيرة ميون أو بريم الواقعة فى أضيق نقطة فى بوغاز باب المندب، وذلك فى اليوم الثالث من مايو ١٧٩٨ وظلت حتى أوائل سبتمبر من نفس العام(٥١).

ثانيا : عندما تحطم الأسطول الفرنسى فى مياه أبى قير بفضل التفوق البريطانى، تشجعت كل من الدولة العثمانية وشعب مصر على التصدى لهذه الحملة، رغم المبادىء التى أعلنها نابليون وأنه جاء لتأديب المماليك وثار المصريون ثورتهم الأولى رغم مجهودات الفرنسيين فى

التقرب منهم وتحركت ثورة المصريين بشكل تلقائى وبدون تنظيم، لكنهم بسرعة تجمعوا أمام الأزهر ، حيث بدأ الصدام مع القوات الفرنسية .

وساعدت الدماء التى سالت فى المعركة على زيادة الحماسة ، فانتشرت الثورة وامتدت إلى الأقاليم وفى الإسكندرية ورشيد والبحيرة، وكانت المقاومة التى لقيتها الحملة الفرنسية فى الصعيد لاتقل فى ضراوتها عن تلك المقاومة التى واجهتها فى الدلتا. وكان أن نجح الثوار نتيجة انهيار الروح المعنوية للفرنسيين ، بعد أن حطم الإنجليز أسطولهم فى مياه أبى قير.

ثالثا : تشجعت الدولة العثمانية لإخراج الحملة من مصر ، وأحس نابليون أنه لابد من مواجهة هذا الخطر فى الشام قبل أن يصل إلى مصر خاصة وأن الإنجليز شاركوا العثمانيين فى هذا التحرك الذى امتد إلى العريش، فكان قرار نابليون القيام بحملته على سوريا. وبعد معركة العريش التى انهزمت فيها القوات العثمانية استولى الفرنسيون على غزة والرملة ويافا، التى شهدت أسر ثلاثة آلاف أسير عثمانى وقتلهم رميا بالرصاص مما أثار حمية الحامية العثمانية فى عكا ، فاستبسلت فى الدفاع عن عكا وساعد أحمد باشا الجزار فى الدفاع عن مدينة عكا وجود الأسطول الإنجليزى بقيادة السير سيدنى سميث أمام الميناء ، ومنع وصول مدافع الحصار إلى الفرنسيين بطريق البحر، بل إن الأسطول الإنجليزى كان قد أسر السفن الفرنسية التى حملت المدفعية والذخائر واتجهت بها جنوب سواحل سوريا ، وسلمها إلى أحمد باشا الجزار الذى دفع بها عن عكا أمام الفرنسيين، وأمام فشل نابليون فى حصار عكا اضطر إلى العودة إلى مصر وبعد أن فقد ما يزيد عن ألفى قتيل وألف رجل ماتوا بالأمراض فضلا عن حوالى ٢٥٠٠ جريح .

وهكذا عاد نابليون مهزوما بعد مائة وخمسة وعشرين يوما ليواجه المقاومة المصرية فى الصعيد والدلتا ، وكانت تهدد أمن القوات الفرنسية هذا فى الوقت الذى نزلت قوات عثمانية فى منطقة أبى قير فى شهر يونيه ١٧٩٩ واحتلت قلعة أبى قير لاتخاذها قاعدة لهم ضد الفرنسيين ، لكن نابيلون هاجم هذه القوة وهزمها ، مما زاد من شعور المصريين بالعداء ولم يلبث أن اضطر نابليون إلى العودة إلى أوربا بسبب الاضطرابات هناك وهزيمة الجيوش الفرنسية فى كل من إيطاليا والنمسا . وقد ترك نابليون مصر يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ ومعه عدد من كبار الضباط (٥٢).

رابعا: فى عهد كليبر- خليفة نابليون فى مصر- قامت ثورة القاهرة الثانية، مما اضطره إلى

الاتصال بالدولة العثمانية من أجل التفاوض والصلح الذى انتهى باتفاقية العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ . وتقدمت الحكومة العثمانية لاستلام القاهرة لكن بريطانيا أعلنت رسميا عدم موافقتها على اتفاقية العريش لأنها ترى ضرورة الاستسلام دون قيد أو شرط بالنسبة للحملة الفرنسية . وأعلنت انجلترا أنها سوف تضبط فى البحر الأحمر كل سفينة تحمل جنودا فرنسيين، وتعتبر من عليها أسرى حرب. وأمام هذا الوضع تقدمت قوة عثمانية إلى القاهرة لكن المدفعية الفرنسية أوقعت بالقوات العثمانية خسائر جسيمة ، واضطر العثمانيون إلى الانسحاب من موقعة عين شمس التى كانت الشرارة التى أشعلت ثورة القاهرة الثانية وما تلاها من أحداث ذلك أنها كانت أقوى من ثورة القاهرة الأولى نتيجة انضمام بعض العثمانيين والمماليك ، واستمرت هذه الثورة ثلاثة وثلاثين يوما . وفى صبيحة يوم ١٤ يونيه ١٨٠٠ ذهب كليبر إلى الروضة لاستعراض كتيبة الأرمام التى جندها الفرنسيون، وفجأة اقترب منه أحد الشبان ، وأخرج خنجرا وطعن به كليبر الذى سقط مضرجا بدمائه وأسلم الروح(٥٣).

خامسا : وكان أن تولى الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية فى مصر ، ولكنه لم يكن ذا كفاءة عسكرية كبيرة، وبالتالى فإنه رتب الأمور على أساس إبقاء الاحتلال الفرنسى فى مصر، وقيام مشروعات اقتصادية من موارد مصر. لكن الوقت كان ضيقا إذ جاءت قوات عثمانية وبريطانية إلى مصر لمحاربة الفرنسيين وإخراجهم بقوة السلاح من مصر . وتحت ضغط الإنجليز اضطر مينو إلى قبول الرحيل عن مصر بعد أن بدأت القوات العثمانية والإنجليزية فى الزحف جنوبا نحو القاهرة التى احتلها العثمانيون والإنجليز .

وفى ٢٣ يونيه ١٨٠١م بدأ التفاوض بين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز على أساس جلاء الفرنسيين عن البلاد. وبعد مفاوضات امتدت لمدة أربعة أيام تم الاتفاق على جلاء القوات الفرنسية عن مصر على أساس انسحاب القوات الفرنسية فى مدة لاتتجاوز خمسين يوما على نفقة الحلفاء وتم توقيع الاتفاق فى ٢٧ يونيه ١٨٠١ ، وخرجت الحملة بعد ثلاث سنوات . وكان خروجها من مصر بفضل الجهود الضخمة التى بذلتها انجلترا فى محاولاتها للحفاظ على طرق المواصلات البرية إلى الهند. وبالتالى فإن الحملة الفرنسية لفت أنظار العالم إلى أهمية موقع مصر الجغرافى، واشتداد الصراع الدولى على هذه الطرق، خاصة بعد

رحيل الحملة . ولم يكن الإنجليز يهتمون بجلاء الفرنسيين عن مصر قدر اهتمامهم بمنعهم من تهديد المصالح البريطانية فى الشرق وكان أن فرضت انجلترا حصارا على سواحل مصر(٥٤).

سادسا : بعد رحيل الحملة سادت مصر فترة من الصراعات الداخلية بين المماليك والعثمانيين والمصريين . وكانت الحملة قد لفتت الأنظار إلى أهمية مصر فى المجالات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية والمعنوية ، فظهرت على أنها مركز هام، ونقطة اتصال بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، وطريق رئيسى يصل أوربا بالشرق الأقصى، هذا إلى أن مصر ظهرت على أنها سوق توزيع له قيمته بالنسبة لتصريف المنتجات الأوربية ، ومنطقة إنتاج مواد خام تحتاج إليها الصناعات الأوربية. وبعد رحيل الحملة أخذت كل من الدولتين انجلترا وفرنسا فى التفكير فى العودة إلى مصر . ورغم جلاء الفرنسيين عن مصر عام ١٨٠١ فقد ظلت رغبتهم فى العودة إليها والتحكم فى طريق البحر الأحمر شديدة، وأوفد نابليون الكولونيل سبتيانى إلى مصر للتعرف على البريطانيين ولدراسة الأوضاع الجديدة هناك فى نهاية عام ١٨٠٢ م . وظل نابليون حتى نهاية حياته السياسية مهتما بمصر ، وبالطريق الموصل للشرق عبر البحر الأحمر، كما كان يرسل مبعوثه لجمع البيانات والمعلومات الهامة. لعرقلة مصالح ومساعى أعدائه البريطانيين فى هذه المناطق (٥٥).

وحاولت كل من انجلترا وفرنسا عن حليف قوى يضمن لها العودة، فتحالف الإنجليز مع زعيم المماليك الألفى، وتحالف الفرنسيون مع خصمه البرديسى بك. لكن الأمور آلت فى عام ١٨٠٥م إلى محمد على الذى حاول الفرنسيون والإنجليز التقرب منه. ولما أظهر تعاونا مع فرنسا أرسلت انجلترا حملة فريزر عام ١٨٠٧ لمساعدة زعيم المماليك الألفى بك لتقلد السلطة، ولكنه كان قد مات قبل وصول الحملة الإنجليزية التى منيت بالفشل نتيجة المقاومة الشعبية المصرية فى رشيد مما أجبرها على الرحيل. ورغم هزيمة حملة فريزر فإن بريطانيا كان لها السيادة البحرية فى البحر المتوسط حيث احتل الإنجليز جبل طارق عام ١٧٠٤ واحتلوا جزيرة مالطة عام ١٨٠٧ وضموها إلى مستعمراتهم أثناء انعقاد مؤتمر فينا عام ١٨١٥ (٥٦).

أما فى مصر فقد واصل محمد على سياسته الرامية إلى التحالف مع فرنسا، وهو ما أزعج انجلترا التى وقفت له بالمرصاد فى كل توسعاته ، سواء فى الجزيرة العربية، أو فى الشام أو فى الخليج العربى. ولما أحست بخطورة تحركاته على مصالحها وطرقها التجارية ، خاصة بعد احتلال عدن عام ١٨٣٩ ، قامت بإجبار محمد على على قبول معاهدة لندن ١٨٤٠ وهى التى

قلصت كل جهوده ، وحرمته من كل انتصارته، وجعلته حاكما على مصر فقط . كل هذا من أجل الحفاظ على طرق المواصلات التى أبرزت الحملة الفرنسية أهميتها بالنسبة لطرق المواصلات إلى الهند(٥٧).

سابعا : كانت الحملة فاتحة الصراع على مصر، وظهرت أهميتها بعد رحيلها -فى عهد عباس حلمى الأول (١٨٤٨-١٨٥٤)- حيث نجح الإنجليز خلال فترة حكمه فى التفوق على فرنسا، خاصة عندما توطدت الصداقة بينه وبين قنصل بريطانيا العام فى مصر وهو شارل مرى وحصلت بريطانيا على موافقة لإنشاء سكة حديدية فى مصر لخدمة المصالح البريطانية ، ولتسهيل سرعة نقل التجارة والجنود البريطانيين بين انجلترا والهند(٥٨).

ثامنا : عندما تولى اسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) ظهر التنافس بين الدولتين انجلترا وفرنسا، وكان يختلف عن سابقيه حيث ظهر طموحه ومشروعاته الكبرى التى كلفته مبالغ ضخمة جعلت النفوذ الأجنبى يتغلغل داخل مصر . واشتدت الأزمة المالية التى أجبرت مصر على بيع حصتها فى قناة السويس، واشترتها إنجلترا حتى تكون شريكا لفرنسا فى إدارة القناة. ومع اشتداد الأزمة المالية، وتشكيل صندوق الدين ولجان التحقيق الدولية حاول اسماعيل إيقاف هذا النفوذ الأجنبى، وتحريك القوى الوطنية المصرية . وكان أن قامت إنجلترا وفرنسا بالضغط على السلطان العثمانى حتى عزل اسماعيل عام ١٨٧٩ . وتطورت الأمور بثورة الشعب المصرى بزعامة أحمد عرابى، الذى واجه تدخلا عسكريا سافرا من إنجلترا التى احتلت مصر عام ١٨٨٢ . وخرجت مصر من الناحية العملية عن سلطة الدولة العثمانية، واستقر الاحتلال نهائيا بالاتفاق الودى بين الدولتين عام ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا حيث اطلقت فرنسا يد انجلترا فى مصر مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش، وظلت مصر من الناحية النظرية ولاية عثمانية حتى إعلان الحماية على مصر فى عام ١٩١٤ لتنتهى قصة الصراع الطويل على طرق المواصلات عبر مصر بدخول مصر تحت الاحتلال البريطانى(٦٠).

رابعا : الآثار التى ترتبت على الصراع حول طرق التجارة البرية :

من هذا العرض للحملة الفرنسية باعتبارها حلقة من حلقات الصراع الدولى على طرق المواصلات بين الشرق والغرب تتضح عدة أمور لها آثارها على المنطقة وعلى طرق المواصلات البرية ومن هذه الآثار :

أولا : أدى هذا الصراع الدولى على طرق المواصلات البرية إلى محاولة الدولتين انجلترا

وفرنسا توثيق علاقاتهما بالسلطات الحاكمة فى مصر ابتداء من القرن السادس عشر، خاصة بعد انهيار دولة المماليك وتولى الدولة العثمانية الدفاع عن ديار الإسلام، وإغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن الأوربية ، وقيام الدولتين بعقد معاهدات مع الحكام الموجودين فى مصر خاصة على بك ومحمد أبو الدهب وإبراهيم بك ومراد بك بقصد تسهيل مرور التجارة عبر مصر، رغم أن طريق رأس الرجاء الصالح كان ميسورا بالنسبة لانجلترا وهولندا لكنه أطول كثيراً من الطريق البرى عبر مصر .

ثانيا : أثبتت الدراسة أن كلا الدولتين حاولتا إرسال الرحالة والمستكشفين والتجار الذين أكدوا أهمية احتلال مصر باعتبارها مفتاح الشرق، وكانت فرنسا أسبق فى هذا المضمار خاصة بعد مسيو دى تيفيو وليبنز وفولنى وماجالون. وأكد الرحالة ضرورة احتلال مصر حتى تضمن فرنسا السيطرة على الطريق التجارى وضرب إنجلترا فى مستعمراتها فى الهند.

ثالثا : عندما أحست انجلترا بمحاولات فرنسا إغلاق الطرق أمام بريطانيا كان رد الفعل الطبيعى أن تحاول إرسال عدد من التجار والقناصل لوقف هذا المد الفرنسى، فضلا عن محاولات انجلترا الاستيلاء على منافذ طرق التجارة ، خاصة الاستيلاء على جبل طارق فى مدخل البحر المتوسط وعدن فى مدخل البحر الأحمر، وفرض الحماية على المشيخات العربية، سواء فى الخليج العربى أو فى أطراف الجزيرة العربية هذا كله بالإضافة إلى تكوين الشركات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الليفانت من أجل السيطرة على منافذ التجارة البرية عبر مصر والعالم العربى .

رابعا : كانت الحملة الفرنسية على مصر سابقة خطيرة فى تاريخ العلاقات الدولية ، خاصة بين انجلترا وفرنسا، وكان قدوم الحملة صدمة حضارية أصابت المجتمع المصرى ولفتت انتباهه إلى تخلفه الشديد إبان الحكم العثمانى. وكان لابد من محاولة مواكبة التطورات الدولية وإحياء طرق التجارة البرية.

وقد تجلى هذا فى عصر محمد على الذى وجد تنافسا من الشركات الأجنبية لحفر قناة السويس للسيطرة على طرق التجارة . ولكن محمد على كان حريصا على استقلال مصر، وقال عبارته المشهورة «لا أريد بسفورا آخر فى مصر» لأنه كان يخشى من وقوع مصر تحت سيطرة أى من الدولتين انجلترا وفرنسا، كذلك ورفض إعطاء امتياز حفر قناة السويس لأى منهما، وحافظ على استقلال مصر، مما زاد من غضب انجلترا التى ظلت تضمر له العداء وحرمته من

كل انتصاراته، وأجبرته فى معاهدة لندن على التقوقع داخل مصر حتى لايؤثر على طرق المواصلات عبر مصر .

خامسا : أثبتت هذه الدراسة أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بداية مرحلة جديدة لفتت الأنظار إلى أهمية موقع مصر الجغرافى الفريد فى طرق المواصلات البرية. وكانت بداية محاولات جادة من أجل السيطرة عليها. وإذا قارنا فترة الحملة وما كان بعدها نجد الفرق شاسعا بين المرحلتين ، حيث كانت فترة ما قبل الحملة مجرد محاولات من قبل الرحالة والتجار، لكن بعد الحملة كان الطابع السياسى هو السائد والمحرك لكل الأحداث التى تلت الحملة . وكانت الحملة نقطة التحول، وبداية الأطماع الأوربية فى مصر والعالم العربى والأفريقى. ولم تتوقف هذه المحاولات إلا بسيطرة بريطانية على مصر عام ١٨٨٢م ، وانتصار أصحاب الطريق البرى والسكك الحديدية على أنصار الطريق البحرى وحفر قناة السويس .

هوماش البحث

١- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى إلى الاحتلال البريطانى ١٥١٧-١٨٨٢، ص٧١ .

٢- عمر عبد العزيز عمر : تاريخ المشرق العربى ١٥١٦-١٩٩٢ ، ص٢٢٢ .

٣- محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤-١٩١٩ ، ص١٨٨ .

٤- أحمد زكريا الشلق: معالم التاريخ المصرى الحديث والمعاصر، ص٣٨ .

٥- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٢ .

٦- روبير سوليه : مصر : ولع فرنسى ، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة ١٩٩٩، ص١٤ .

٧- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٨- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٧٣ .

٩- Henry , Lamba: De l'evolution Juridique des Europeens en Egypt, Paris 1896 p. 205.

١٠- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

١١- جلال يحيى : المجمل فى تاريخ مصر، ص٥٢ .

١٢- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٣ .

١٣- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص١٦ .

١٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٧٠ .

١٥- عمر السكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى الوقت الحاضر، القاهرة ١٩١٦ ، ص١٧ .

١٦- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٢٢٤ .

١٧- Deherain , Henry : L'Egypt, Turque p. 202 .

١٨- فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ١٨٣٩-١٩١، ص٧٣ .

١٩- روبير سوليه : مرجع سابق ، ص٢٤ .

٢٠- جلال يحيى: مرجع سابق ، ص١٥٣ ، وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: مرجع سابق ، ص٢٠١ .

٢١- حراز : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٢٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص٩٦ .

٢٣- Jean Marir Carre : Voyageurs et Ecrivians Francais en Egypt le Cairo, 1956 , p. 36.

٢٤- حراز : مرجع سابق ، ص٧٧ .

٢٥- Francais Charles , Roux : les Origins de l'Expedition d'Egypt, paris 1916 , p. 39.

٢٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٣٠ وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن : النشاط التجارى فى البحر الأحمر فى العصر العثمانى ١٥١٧-١٧٩٨ ضمن كتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص٢٥٤ .

٢٧- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٢٨- روبير سوليه : مرجع سابق، ص٣٠ .

٢٩- فاروق أباظة : مرجع سابق ، ص٧٩ .

٣٠- جلال يحيى : مرجع سابق ، ص١٥٤ .

٣١- Henry Laurens : L'Exepdition d'Egypt Paris , 1989 , p. 230 . وأيضا عبد الرحيم عبد الرحمن: تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ص٢٠٣ .

٣٢- حلمى محروس اسماعيل : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

٣٣- عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق، ص٢٢٢ .

٣٤- Ghorbal Shafik : The Beginnings of the Egyption Quastion and the Rise of Mahemet Ali 1928 , p. 3 .

٣٥- السيد رجب حراز: مرجع سابق، ص٨٠ .Coupland R: East African and its Invaders, p. 362.

٣٦- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص٢٢٦ .

٣٧- نفس المرجع السابق عمر عبد العزيز ص٢٢٧ .

٣٨- فاروق أباظة : مرجع سابق، ص٥٧ .

٣٩- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٨٤ .

٤٠- عبد الرحيم عبد الرحمن : مرجع سابق ، ص١٩٦ .

٤١- محمد أنيس : مرجع سابق ، ص١٩٠ .

٤٢- السيد رجب حراز : مرجع سابق، ص٨٩ .

٤٣- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص٢٢٨ .

٤٤- السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص٩٢ .

٤٥- محمد أنيس : مرجع سابق، ص١٩ .